العدد 4 – السنة الثالثة – 1436 هـ / 2965 أ / 2015 م
ⵜⵉⴷⵉⵖⵉⵏ
TIDIGHIN
مجلة تيدغين للأبحاث الأمازيغية والتنمية

تحقيق

جماعة آيث احمد – إمكزن:

"طورابورا الريف"

عبد المجيد أمياي: صحافي

بني احمد إموكزان واحدة من الجماعات الغارقة في التهميش و المعاناة، يحق لبعضهم الوصف عندما يقولون عنها و أخواتها من الجماعات التي استقالت الدولة من الاهتمام بها: "الريف المنسي داخل الريف"، لا شيء يوحي بحدوث التغيير، لو بعث مجاهدو العشرينيات و الثلاثينيات من قبورهم سيتذكرون جماعتهم "درب درب و زنقة زنقة"، بكل بساطة التحول هنا يسير بسرعة السلحفاة أو أقل، و المعاناة نفسها إلى "يوم الناس" هنا.

الصورة 1: مقر جماعة بني احمد إموكًزان

إنها "طورابورا الريف"، بهذه العبارة وصف أحمد المرابط، رفيق محمد بن عبد الكريم الخطابي بالقاهرة، جماعة بني أحمد إموكزان، كل شيء يحيل إلى ذلك الشبه، صعوبة المسالك، و الجبال الشاهقة التي تلامس السماء في ارتفاعها، و التهميش الذي عاشته منذ سنوات الاستعمار، الذي قسا عليها حتى أحرقها بغازاته و قنابله السامة.

من الحسيمة إلى تاركًيست، مسافة ليست بالقصيرة، منعرجات معلقة بين الجبال إلى أن يبلغ المسير جماعة «بني بونصار» التي تستقبل الزوار بمركزها البدائي، مقهى «السعادة» تنبعث منه رائحة الكيف و إيقاعات حركة صاخبة لشاشة التلفاز التي تعرض أفلام الأكشن، هذه المحطة لابد من الوقوف بها لتفقد الوادي الذي ينبع من أعلى قمة جبلية بالريف، «تيدغين»، و يخترق الجماعة قبل أن يلفظ ما حمل من مياه و صخور بسد الوحدة، أكبر سد في المغرب. من هذه النقطة تبدأ سلسلة من المنعرجات أكثر خطورة، لا شيء يشجع على إكمال المسير، «هذه الطريق محفوفة بالمخاطر و شهدت الكثير من الحوادث المميتة»، يقول مرافقنا، قبل أن يضيف

«قطعنا إلى حدود الآن 100 كلم، و ما يزال أمامنا 30 أخرى حتى نصل إلى بني أحمد إموكزان، و أتمنى ألا ينتابك الخوف عندما نصل إلى منعرجات تيشكا الريف».

منعرجات «تيشكا الريف» مصطلح يفضل بعض أبناء الجماعة، التي أخفتها جبال صنهاجة بين ثنايا سفوحها، أن يصفو بها 10 كلم من الجحيم، لا ينصح بسلكها للذين يعانون من رهافة القلب، فهي المنفذ الوحيد للجماعة إلى العالم الخارجي، و من دونها يصبح 10 آلاف نسمة عدد سكان بني أحمد إموكزان تحت رحمة المجهول، و كثيرا ما عاشوا هذه الحالة في ذروة التساقطات الثلجية أو عند فيضان الأودية و المجاري.

- **استقالة الدولة**

« نحن نعاني في صمت، لا شيء يبعث على التغيير هنا»، بهذه الكلمات اختار أحمد أن يعلق على حال الجماعة، الدولة منذ الاستقلال لم تحفز هؤلاء السكان على البقاء هنا، كل شيء ينطق بحاله، حتى المسالك التي تربط بين الدواوير من إنجاز السكان و بإمكانياتهم المتواضعة، «نحن نحب منطقتنا، لقد ناضل أجدادنا ضد الاستعمار من أجل البقاء شامخين هنا، و لا يمكن بأي حال من الأحول أن نخذل درب الأجداد»، يقول شاب من الشباب المتحمسين خلال الندوة التي نظمتها جمعية «أمازيغ صنهاجة الريف»، و «الجمعية الأمازيغية لمساندة الشعب الفلسطيني»، يوم 10 فبراير 2013، بمقر جماعة بني احمد إمكّزن، بمناسبة 50 سنة على رحيل محمد عبد الكريم الخطابي زعيم المقاومة الريفية.

الصورة 2: صورة عامة لمركز الجماعة (دوار إمڭزن)

الشعور نفسه يخالج معظم الشباب الذين تم استقاء آرائهم، الكل واع بحجم التهميش الذي تعاني منه الجماعة، لكن لا أحد هنا مستعد للتخلي عنها و عن أشجار اللوز المحيطة بها، هذا الإصرار على البقاء لا يخفي الغضب الشديد في محيا بعضهم، من الذين ينظرون إلى مستقبل الجماعة بالتوجس، فالتعليم في مراتبه الدنيا، و كذلك الصحة و الخدمات العمومية الأخرى.

« في جماعتنا 10 آلاف نسمة، بين هؤلاء كلهم فتاة واحدة تتوفر على شهادة الباكالوريا»، يقول شاب اختار الكشف عن واقع التعليم، قبل أن يضيف «كل الفتيات يضطرن إلى الانقطاع عن الدراسة أمام قلة ذات اليد، و أمام غياب إعدادية بالجماعة. بل أكثر من ذلك فحتى الأقسام الابتدائية التابعة لمجموعة مدارس بني أحمد اموكزن مهددة بالانهيار، و مشروع الإعدادية جمد لسنوات لحسابات ضيقة لأطراف سياسية بالجماعة».

و حتى الذكور، منهم من يضطر لإكمال دراسته في تاركَيست، حاضرة قبائل صنهاجة، لا يحظى العديد منهم بالرعاية الكاملة، و لا يساعدهم حتى السن الذي يغادرون فيه الجماعة على التأقلم مع الوضع الجديد، فيضطرون للانقطاع عن الدراسة في سن مبكرة.

المستوصف الوحيد هنا ليس بأفضل حال من باقي المصالح، غياب «رهيب» للتجهيزات و الكادر البشري، و المواطنون يضطرون إلى التنقل إلى تاركَيست لاقتناء الأدوية و تلقي العلاجات، حتى البسيطة منها. الحال نفسه يتكرر أمام الغياب الطويل لمسؤولي الجماعة، فيضطر المواطنون لإتمام و إنجاز وثائقهم الإدارية إلى الانتقال إلى بني بونصار و تاركَيست، و بين رحلة و أخرى يخسر هؤلاء «المعذبون» ما ادخروه من مال لضمان العفاف بين جبال لا ترحم أحدا.

أما خدمات الصرف الصحي فحالها يغني عن السؤال، و الواد الحار يخترق مركز الجماعة، ليتعايش مع روائحه النتنة السكان و يألفوها إلى جانب ما ألفوا من روائح أزهار اللوز و «إغديون» (خلطة من النباتات الخضراء تطبخ على نار هادئة). و آخر شيء يخطر على البال هنا أن يمتلكوا قنوات تصرف فضلاتهم دون أضرار صحية.

- **لعنة الكيف**

كباقي الجماعات المحيطة، اتخذ سكان "بني أحمد إموكزن" زراعة «العشبة» كزراعة بديلة عن الخضروات التي كانت الجماعة تشتهر بها من قبل، و لم يكن اختيار السكان لهذه الزراعة من باب البحث عن الغنى، فالجميع هنا بالكاد يضمن ما يسد به رمقه، «لقد بدأنا بزراعة الكيف، بعدما تراجعت خصوبة الأرض، و أصبح مردودها يقل موسما بعد آخر»، يقول أحد المزارعين. المتحدث يبرز كيف أن هذه الزراعة لم تغير من المستوى المادي للسكان و المزارعين بالخصوص، فالفلاح الذي كان بالأمس يحصل على كل ما يحتاجه لقوته اليومي، من خلال ما

يزرع، الآن بات عليه شراء كل شيء من السوق، و بالكاد يكفيه ما جناه من مال، بخلاف محصول الكيف الذي يكفيه لتوفير كل ما يلزم من متطلبات الحياة اليومية.

لعنة الكيف جرت على المزارعين بهذه الجماعة العديد من المشاكل التي ما إن تنتهي حتى تبدأ أخرى، فبالإضافة إلى الحملات التي يخوضها الدرك بين الفينة و الأخرى، يعاني المزارعون من الشكايات المجهولة التي تسجل ضد المزارعين، في غالبيتها تكون لتصفية الحسابات مع هذا المزارع أو ذاك، و كثيرا ما استعملت هذه الشكايات كوسيلة من وسائل النصب و الاحتيال على المزارعين البسطاء.

الجميع هنا يجمع على أن الاحتجاجات التي عرفتها الجماعة في الآونة الأخيرة، رفعت من عدد هذه الشكايات، و إن كان العدد الأكبر منها هذه المرة خص شبابا بعينهم، هم قادة الحركة الاحتجاجية التي رفعت مطالب بسيطة، بعد مجموعة من الممارسات التي اعتبروها مجهضة لآمالهم في الحلم بغد أفضل، و يسوق هنا أحدهم مثالا لذلك، و هو «قطع التيار الكهربائي على نساء خرجنا من العزلة و شرعنا في التعلم و محو أميتهن».

لعنة الكيف تأخذ وجها آخر عندما ينتقم بعض الأباطرة من الفلاحين، خاصة ممن يكونون متعودين على اقتناء المحصول السنوي، بعضهم يمنح قروضا لهؤلاء البسطاء فيصبح مصيرهم بأيديهم، و كثيرا ما قدموا ضده شكايات بعدما بدا لهم أن المزارع اختار التعامل مع بارون آخر، أو لا يريد البيع بالثمن الذي يفرضونه.

- **قـنـابـل العـدو تـقـتـلـنـا**

«لازال صوت الانفجار يتردد في أذناي بين الفينة و الأخرى، كان انفجارا قويا ما زلت أعاني من تبعاته إلى حدود الآن»، بهذه الكلمات اختار حسن لزرق أحد شباب جماعة بني أحمد إموكزن (إقليم الحسيمة)، أن يسترجع ذكريات غابرة مع حادث أليم أودى بحياة شقيقه، قبل أن يضيف و الدموع تغالبه، «عثرت رفقة أطفال الدوار على قنبلة لم نكن نعلم أنها قنبلة خلفها الاستعمار الاسباني في المنطقة، حملناها و بدأنا نعبث بها إلى أن اهتدينا إلى فكرة وضعها فوق النار لاستخراج مادة بداخلها، قال أحد أصدقائي إننا سنبيعها لأحد الأشخاص الذي يتاجر في المتلاشيات».

حسن يتذكر الحادث بحسرة شديدة، «كلما نظرت إلى الصورة الجماعية التي التقطت لنا أنا و شقيقي و باقي الأصدقاء الذين حضروا حادث الانفجار، أصاب بالانهيار و الألم»، يقول و هو يسترق نظرات إلى الصورة التي التقطت لهم أشهرا قليلة قبل الحادث، و التي فضل أن يحتفظ بها في جيبه إلى الأبد، يستطرد في سرد تفاصيل الحادث « كنا أكثر من 20 طفلا مجتمعين حول النار و متحلقين حولها، لمدة تزيد عن نصف ساعة، قبل أن تظهر شاحنة من نوع "بيرلي"، نصف المجموعة ذهب لرؤية الشاحنة، و بعدها بلحظات انفجرت القنبلة، فقدت الوعي و عندما استفقت وجدت أخي قد فارق الحياة، نتيجة إصابة بليغة في عنقه، فيما أصيب الطفل الثاني الذي كان يصغرني بسنتين بجراح على مستوى بطنه، و غادر بسرعة إلى البيت تحت تأثير الإصابة، و عند مروره بإحدى عيون المياه شرب منها فخرجت أمعاؤه في الحين و مات هو الآخر، أما أنا فاخترت الهرب بعيدا».

منذ 1989، تاريخ الحادث المؤلم الذي ذهب ضحيته شقيقي حسن ذي السنتين، و صديق آخر يبلغ من العمر 8 سنوات لم تتوقف حوادث من هذا النوع، فبين الفينة و الأخرى تنفجر بعض القنابل التي تركها الاستعمار وراءه، بعد الإبادة الجماعية التي نهجها مع قبائل

صنهاجة، بعدما رفضت إلقاء السلاح بالرغم من استسلام الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بنواحي تاركيست في 26 ماي 1926.

عندما تخبر السلطات بالعثور على قنبلة يقوم «المخازنية» بأخذها و تفجيرها في الوادي. «هذا التفجير يمس السكان لأن القصف كان كيميائيا، فمن مياه هذا الوادي تروى محاصيل الفلاحين، و منها يشرب الناس، خاصة في فترة الصيف، و هو أمر يعرض سلامة السكان للخطر»، يقول إلياس أعراب الفاعل الجمعوي بالمنطقة، قبل أن يضيف، «هناك نوعان من القنابل التي تم العثور عليها في المنطقة: نوع طويل يبلغ طوله حوالي 50 سنتمترا، و الثاني دائري، على شكل قرص، و كلها من مخلفات الاستعمار بالمنطقة». و ما يزيد من خطر تعرض الساكنة للأخطار، بالإضافة إلى طريقة التخلص منها، الوضعية التي توجد فيها هذه القنابل، فهي مطمورة تحت الأرض و لا يعرف حجمها و لا عددها، و غالبا ما تفاجئ السكان عند شروعهم في الحفر أو الزراعة « شرعنا من موقعنا كمجتمع مدني في استجماع القوى من أجل التحرك و دفع السلطات إلى إجراء مسح شامل للمنطقة حتى لا يسقط المزيد من الضحايا».